طقوس اقليمية للعار

قصة بقلم حيدر حيدر

عندما غادر علي الراعي « الصبوحية » لم يكن يملك مالا ولا ارضا . كانت ثيابه عتيقة مغبرة ، لكنه كان فتيا بقوة الصخر .

في سمعه وهو يغادر بيته العتيق ، تنحدر نحو البحر ، رن صوت امه : كن عاقلا في بلاد الغربة ! واذ تلاشى الصدى ، ارتعشت في اعماقه حكمة قديمة كبيته : « العقل زينة الانسان »

جرى على الطريق الغباري ، ثم ما لبث ان انحدر في السفح ، والفرح يزقو بين ضلوعه ، ولما احس بانه اصبح بعيدا عن الصبوحية، وثب في الفضاء كفحل معزي فوق مروج خضر ، ثم فرد يديه وصفق بسخرية فرحة ، واندفع كقذيفة يعدو باتجاه الحرب .

امضى علي الراعي طفولة بائسة في قريته . عرف الجوع والعري واضناه التعب . كما كانت بنات الضيعة يهزأن من انفه الدقيق الملتوي وصلعته وتأتأته عندما يتحدث معهن .

الآن انتهى ذلك . وانتهى ايضا الاستيقاظ الباكر لرعي الدواب ، وغابت وجوه الفلاحين الكئيبة المغضنة وثرثراتهم وهم يعودون من السهول ، كما ارتاح من قرص البراغيث في البيت المسقوف بالشوك والتراب والحطب والفئران .

ـ وداعا ايها السجن القديم الممل !

همس لنفسه بصمت ، ثم لوح بيديه لآخر بيت رآه يغيب وهو في صندوق السيارة مع رفاقه ، فاحس انقباضا محزنا ، ثم فجأة رأى نفسه وحيدا مسلوخا عن مواطن طفولته .

وفيما بعد ، زمن طويل ، تذكر علي الراعي انهم مروا بمدن توقفوا فيها قليلا ثم تابعوا ، ولما وصلوا في أول المساء اطلت عليهم انوار كانت ترقص كالنجوم ، وسأل علي الراعي صاحبه عن هذه الكواكب الملألأة فيقول له ساخرا : هذه مصابيح كهرباء يا غشيم !

ثم يداهم علي الراعي بمدينة ضخمة كالجبال ، وبأبنية حديثة ، وسيارات مسرعة لم ير مثلها في حياته . يفاجأ بانها لا تصدم بعضها بعضا ، كما يذكر انه كاد يصرخ وهو يرى نساء سيقانهن عارية .

ويخجل من الاسئلة خوف الخطأ والسخرية فيتمتم لنفسه : لا بد ان هذه بلاد الغربة كما قالت امي ! !

عندما وصلوا المعسكر القائم في طرف المدينة ، بوغت بان ما رآه قد مضى ، كما مضت الصبوحية ، وانه الآن في الحرب .

كان المعسكر شبه معتم ، واذ وطئت قدماه الارض ، تذكر تراب الضيعة وداهمه حنين اولي خافت .

انه مستلق الآن على سريره الحديدي في الظلمة التامة ، وهو يحلم : بالضيعة والمدن النظيفة التي رآها . الناس والسيارات والاضواء الباهرة . العالم الضخم المتحرك خارج قريته الضيقه الساكنة .

وفجأة يهب على صوت البوق .

استغرق خطاب قائد المعسكر ساعة ونصف الساعة من حب الوطن والتضحية بالدماء والانضباط الذي ركز عليه وكرره عشرات المرات ، فاخبر الجنود بأنهم قادمون على معركة مصيرية وان عليهم ان يكونوا في مستوى من التدريب واللياقة واطاعة الاوامر بحيث اذا بدأ الهجوم الكبير يرفعون رأس الوطن عاليا ويحققون له النصر المؤزر ثم ختم خطابه بآية مشجعة :

« وان ينصركم الله فلا غالب لكم » .

* * *

اثبت علي خلال الفترة الاولى من التدريب كفاءة مدهشة ، حدث بمدربه لان يطالب له باجازة يمضيها في المدينة .

وها هو في المدينة مسحورا بالاضواء والحركة والاصوات . شوارع نظيفة وابنية شاهقة وسيارات . ثم هؤلاء النسوة البيضاوات كالحليب

ـ وي علي الراعي . ما هذا ؟

ويضحك في سره وهو يتذكر فطوم وزينب وعليا الوسخات الشريرات .

وقال له رفيقه : دعنا نذهب الى السينما !

وبعد شرح معقد من صديقه فهم ان السينما صور جميلة ممتعة تركض فقال بسذاجة : ولكن اليس ما نراه هنا سينما ؟

كان مبهورا والصور تمر على شاشة عينيه فلا يكاد يستقر بنظراته على الاشياء . واذ يرى نموذجا لامرأة واقفة داخل زجاج مخزن يحدق فيه دهشا ثم لا يلبس ان يهمس لصديقه : الا تتعب من هذه الوقفة ؟

فيقهقه صديقه وهو يسحبه من زنده ويمضيان .

في نهاية الدورة فاز علي الراعي بالدرجة الاولى ، فمنح رتبة عريف فخري واعطي جُماعة ليدربها من اجل الهجوم .

بقسوة خالية من اية شفقة درب جنوده . لم يكن يحب الكلام وكانت كلمته المأثورة : العسكرية موت وليست لعبا . ترن في آذانهم وقليلا ما كان يبتسم .

ومذ اوكلت اليه المسؤولية الاولى والثقة ، بدأ يعمل بدأب وقدوة مثالية حتى انقطع عن النزول الى المدينة ، وحرم نفسه من اية اجازة . لقد اصبحت الثكنة بيته ووطنه وعالمه . لكن الجنود كانوا يمقتونه لصلابته وخشونته فاطلقوا عليه لقب : الوحش .

وفيما بعد ادركوا انهم كانوا على خطأ . فقد سهر علي الراعي معهم يوما ورووا ذكريات شخصية قديمة وضحكوا وشربوا الشاي .

وليلتها غنى لهم علي الراعي بصوت جارح حزين ميجنا وسكابا حتى ساعة متأخرة من الليل ، واثر ذلك صار اثيرا لدى قلوبهم وتمنوا ان يقودهم في الهجوم .

* * *

قال قائد السرية ذات مساء لعلي الراعي : علي . انت ذكي وصبور لماذا لا تكمل دراستك ؟ فاجاب دهشا : دراسة ماذا يا سيدي ؟

ـ تدرس في الكتب وتنال شهادة .

ـ ولماذا الشهادة سيدي ؟

ـ الشهادة تدخلك الكلية العسكرية فتتخرج ضابطا .

وحدق في وجه القائد مليا ثم عد على اصابعه : سنوات الدراسة . وسنوات الكلية الحربية . وسنوات التدريب .

وقال للقائد وهو يهز رأسه : وي سيدي . كل ذلك الوقت سيمر حتى احصل على رتبة ضابط . لا يا سيدي لا . يكون الهجوم الكبير قد صار وانا ما ازال في المؤخرة .

وقال القائد : انك تفكر كثيرا في الهجوم !

فقال علي الراعي : طبعا سيدي ، لماذا نتدرب اذن ؟ عندما يبدأ

الهجوم الكبير سأقطع رؤوس الاعداء ورأس كل جندي عدو ، بنجمة . ولاول مرة يبتسم علي الراعي ببساطة فلاح طيب شجـــاع . اردف الضابط وهو يبتسم للسذاجة الريفية : وهكذا تترفع الى رتبة ضابط ؟

قال علي : نعم . وبجدارة سيدي !

ـ واذا تأخر الهجوم ؟

اكمد علي الراعي ، واطرق نحو الارض ولم ينبس . هومت الضيعة في ربى نفسه فتساءل بصمت : ولماذا تركت قريتك اذن يا علي الراعي ؟

كان الضابط قد غادر الان وهو يختال برتبته العسكرية اللامعة .

ـ ٢ ـ

استمر التدريب ، واستمرت الايام بطيئة رتيبة ، وقسوة علـي الوحش وخشونته على جماعته لا تتغير : العسكرية موت فهمتم ام لا ؟

وذات ظهيرة سأله احدهم : متى يبدأ الهجوم حضرة العريف ؟

عقد حاجبيه غضبا وزأر في وجهه : نبلغكم الامر في حينه .

ولم يكن راضيا عن الجواب وردد السؤال في سره فشعر بضيـق وغيظ مبهمين .

خلال الاستراحة ، كان يجلس على صخرة في القيظ ويشرد .

الصبوحية بعد عامين طيف من الذكرى ، بعيدة عنه كالنجوم . وطن الشقاء والملل والحياة الرتيبة ، هي ذي الان تعشب في الذاكرة يرميه الحنين الشفاف فيها : زينب وفطوم وعليا بنات الحرام يلطين ليلا في الازقة واذ يمر يصرخن : علوش الاصلع . علوش التعتاع . ويهربن . كم حرق الارم وهو يشب وراءهن عله يمسك بواحدة ليريها رجولته في الخرابة المهجورة .

ـ آخ لو انهن عندي في الجماعة !

وجميع اصحابه في القرية كانوا عاشقين . لكل صبيته التي يلتقي بها على البيادر تحت ضوء القمر ، او يتسلل الى خيمتها الصيفيـــة يتحدثان ويتعانقان حتى الفجر .

اما علي الراعي الفقير فكان كحجارة الاودية .

وهو يشب عن الصخرة صاح بالجماعة : اجتما...ع .

خلال ثوان بدأ التدريب . اعيدت التمارين والحركات بعنف لـم يشهدوه سابقا . وعوقب افراد الجماعة بالزحف والعدو السريع وتسلق الاشجار ، وعبور احدى المخاضات الملوثة ، ومن ثم التمرغ فوق التراب الجاف .

ـ الى الهاجع رملا !

احس بنشوة وغفران بعيدي الحدود وهو يراهم يهرعون بثيابهم المبتلة المغبرة . وهمس لنفسه : انت فعلا مدرب عظيم يا علي الراعي . هكذا يفهم الخنازير ان العسكرية ليست لعبا !

* * *

يوما بعد يوم بدأت رتابة الزمن تضجر علي الراعي ، احس بهـــا تتماثل وايام القرية ،كماوضح له الان تأخر الهجوم ،وازدادت الحاحات وتذمرات الجنود الظاهرة والخفية فقرر ان يسأل القائد عن الامر .

راقبه يوما في الساحة جالسا في ظل خيمته يحتسي الشاي ويدخن . تقدم منه وحياه تحية انضباطية اهتز له بدنه ثم جمد كوتد دق فـي صخـر .

رفع القائد بصره بصلف واعجاب : ايوه علي ؟

وارتبك علي الراعي تحت حدقتي انضابط ، وراح يتأتيء كلمـات مشتبكـة .

ـ علي مالك . اين شجاعتك ؟

قال القائد بحزم .

استرد علي شجاعته ثم رفع رأسه عاليا : سيدي ... متى يبـدأ الهجـوم ؟

قذف سؤاله بغضب وجدية كمن يعطي او يتلقى امرا عسكريا هاما ، او كمن يقذف قنبلة الى ابعد مدى ، فشعر بالغبطة .

وضحك الضابط حتى اهتزت كأس الشاي وكادت تسقط من يده .

ـ علي ما اسم قريتك ؟

ـ الصبوحية سيدي .

ـ منذ متى لم تذهب اجازة ؟

ـ منذ عامين تقريبا سيدي .

ـ ألم تشتق لاهلك ؟

ـ كلا سيدي .

ـ لماذا سألت سؤالك ؟

ـ الجماعة سألتني عن ذلك سيدي .

واذ ادرك القائد جدية الموضوع رفع صوته وتجهم : طيب قل لهم ان هذا من اختصاص القيادة . اهتموا بشؤون التدريب ولا تتدخلوا في الامور الكبرى . انصرف الان .

عندما استدار بعد ان حيا بطريقة اقل قوة ، دهمته غمة فتمتـم لنفسه : انت يا علي الراعي لست من القيادة اذن !

كان كسيفا وهو يترنح فوق ارض المعسكر ينكت الارض برأس حذائه ويفكر .

في تلك الليلة لم يستطع ان يغفو . بين اليقظة والنوم تراءى لـــه رجل ملتح طويل القامة يرتدي ثيابا سوداء وقف فوقه كالشبح ؟ انت شجاع يا علي الراعي لم تهب شيئا في حياتك ولن تخسر شيئا لانك لا تملك شيئا . سلاحك معك والحدود قريبة . علي الراعي من قديـم الزمان وانت تهفو للحرب وهذه ارضك يزرعونها ويقيمون عليها البيوت والثكنات ويستقرون .

أخذت بالهجوم والدفاع لا يعيدها . هاجمهم يا علي الراعي يهربوا . نغص عليهم حياتهم يهاجروا . هيا يا علي هيا . ابدأ حربك ، اضربهم في فرحهم في طمأنينتهم في مخادعهم . لن تخسر شيئا لانك لا تملك شيئا . ادر ظهرك اتكلمات والفوضاء ولا تستمع الى طنين الجبناء . واختفى الرجل الملتحـي .

ـ ٣ ـ

عندما استيقظ بهت من شيء واحد : كيف عرف ذلك الرجل اسمه ؟

بعد ان عاد مع جماعته من درس الرياضة الصباحي ، جلس امـام خيمته وراح يحدق في السهول والجبال البعيدة ، نضرة مهيبة جريحة تحت البصر ، يقطنها الغزاة منذ عشرات السنوات .

على نحو مشوش في ذهنه المحدود ، اختلطت امور ما كان يفكر فيها في الماضي ، ها هي تحبو الان على شاشة عقله كالاطياف فتسبب لـه الكثير من الغم والضيق .

« انت يا علي الراعي جندي بسيط لست ببال احد . جندي يتلقى الاوامر وينفذها . منذ عامين وانت وجماعتك تنتظرون الهجوم . وها هي تمارين التدريب تتكرر الاف المرات عبر الاف الايام والهجوم لما يأت . وانهجوم يجثم في رأس القيادة ربما في المنطقة المنسية مـــن الرأس ، وانت لست من القيادة . والجندي البسيط يستيقظ بأمر وينام بأمر ويتدرب بامر ويأكل بأمر ، ينزل المدينة بأمر ويغادرها بأمر ويتزوج بأمر ، وربما كان عليه ان يفكر بينه وبين نفسه بأمر ايضا »

وفي لحظة ادرك علي الراعي ان عمره مربوط بسلسلة ذات فـروع بلا نهاية ، وان هذه السلسلة تحركها يد خفية ، وهذه اليد تطيـل له او تقصر متى عن لها ذلك ، كما ادرك ان بينه وبين قائده هـــوة سحيقة لا سبيل الى ردمها . وان هذه الهوة ربما كانت تمتد الـــى بدء الخليقة . لقد احس بالذعر الحقيقي لاول مرة وهو يكتشف : انه بلا حرية .

* * *

في الليلة التالية حضر الرجل الاسود . رأى في وجهه عبوســـا وغضبا . حمله من فراشه وطار به في فضاء تحته غابات وانهار وفـي الفضاء رأى امه ، كان وجهها مقطوعا عن جسدها وكان مشوها محفورا بالجراح وشخوب الدم ، وحاول التوقف ليحدثها لكن الرجل الملتحي

سحبه بعيدا عنها ، وسمع انينا فاجما خلفه ثم رأى نفسه عاريا تماما فأحس بالعار وحاول ان يختبىء داخل الغمامة ولاحقته الطيور وراحت تمتص دمه ، وتلاشى صوت اهه وحاول ان يصرخ فلم يسمع صوته ، وامتدت يده لترد طيور الدم والعلق فاذا بها مشلولة عصية على الحركة ، وشاهد تحته على الارض معارك وغبارا ونساء واطفالا عرايا يسافون بالسلاسل ويطعنون ، وكان الرجل الاسود قد تركه يسبح وحيدا في الفراغ وابتعد عنه . كان يراه وهو يطير باتجاه الغابات واعترضه القائد فنهره بغضب كي يعود لكنه نحاه عن طريقه وقال له : انت جبان يا سيدي . الا ترى طيور الدم تأكلنا . وكانت الطيور تحلق فوق القائد ورآها تنقض عليه حاملة قطعا من لحم وجهه . ثم شاهدها وهي تسمل عينيه وتتقاذفها بمناقيرها الضخمة والقائد يصرخ ويدور في الفضاء اعمى سابحا في بحيرات الدم التي تشكلت .

وسأله : سيدي الا تبدأ الهجوم ؟

فأجاب القائد المصاب : لم تصل الاوامر بعد !

— ٤ —

ما عاد علي الراعي يسأل عن الهجوم اتعام . لقد نفد صبره اخيرا فكسر اول حلقة من حلقات السلسلة الفولاذية مجتازا الحدود المحرمة ، بادئا هجومه الخاص .

في ساعات الراحة كان يرصد بدقة مواقع اولئك الذين خدعوا توراتيا بان تلك الارض لهم ، فجاؤوا من كل بقاع المعمورة ليعيدوا مآسي الحروب الصليبية ، وليدفنوا فيها .

وكان الرصد النهاري توطئة لهجوم ليلي سيقوم به وحده متخطيا طقوس الاوامر القيادية .

فبعد منتصف الليل في الساعات الاولى من الفجر ، كانت غاراته تبدأ ، وكان سلاحه الاصمت فعالية ، سكينا طويلة حادة ، ونادرا ما يستعمل رشاشه ذا الاخمص القابل للطي . وعندما يعود قبيل الفجر كان يتجه نحو مغارة في السفح المجاور للمعسكر يخلي فيها غنائمه الحربية .

ورغم المشقات الليلية لم يتوان عن التدريب ، بل ازدادت خبرته فكان يعلم جماعته المراقبة الفعالة والتنقل والتمركز والكمين والاغارة والانقضاض والخنق والطعن وسحب القتلى والاسرى والاسلحة ، منفذا الحركات والتمارين كأنه في ارض المعركة بين دهشة الجنود واعجاب قادته . وفي احاديثه لجماعته لم يعد يقتصر على كلمة : العسكرية موت . انما اضاف اليها كلمات اخرى ذات مغزى : الانسان الجريء يستطيع ان يفعل اشياء كثيرة . الوطن ليس كلمات وحماسة . الوطن تضحية ودم . الوطن هجوم . حاربونا بالعصابات . لنحاربهم بالعصابات . كل واحد منا يقتل جنديا غازيا نفتيهم . القاتل جزاؤه القتل في شرعنا . بانتباه وفخر كانوا ينصتون اليه ، وما عادوا يهزأون فأفأته وهو يحكي . وهجر علي الراعي العزلة ، والاقتراب من الضباط المعزولين عن الجنود والذين بنوا لانفسهم مجتمعا خاصا في الثكنة والمدينة ، بعيدا عن عالم الجنود وعالم المعركة . وكانت الصبوحية قد انطوت تقريبا من ذاكرته ، فأحس بتحول جديد في نفسه ، فهو يستطيع ان يتحرك ويفكر باوامر تصدر منه ، غير ان ما كان يكمده ان زمان المعركة سيطول وستصحبه الام كثيرة واحزان . وكان يعذبه كتمان سره عن رفاقه وخشي ان يسألوه مرة اخرى عن بدء الهجوم .

وذات غروب طلبه القائد وسأله ان يذهب في اجازة فرفض . فقال القائد : ولكن انت لم تذهب اجازة منذ قدومك الى هنا . الا تحب قريتك واهلك يا علي ؟

فاجاب بعفوية : كل القرى قريتي . والجنود اهلي .

وسر الضابط ودهش : لكن الانسان يحن الى كوخ تربى فيه !

فاجاب فجأة : اكواخنا مسبية يا سيدي .

تنبه الضابط موخزا : اين قرأت ذلك ؟

فقال وهو يشير نحو الارض المغتصبة : هناك يا سيدي .

وبتحية فاترة ودع الضابط الانيق ثم مضى الى خيمته .

* * *

تصاعدت عمليات علي الراعي فأفزعت القدر وتحدث في اذاعته عن دوريات مسلحة تهاجم مخافره وتقاطر استناده ومدنييه ، تقتل وتخطف وتخرب ، وهدد بغارات انتقامية ردا على هذه الاعمال التخريبية ، ودهشت القيادة لهذه الانباء واعتبرتها حجب دزة للقيام باعتداءات جديدة .

وفي باحة المعسكر جمعت العناصر وتحدث القائد عن تخرصات العدو وتحدياته : « علينا ان نكون حذرين والا ننزج في معارك خاسرة . انتم تعلمون ان احدا من عناصرنا لم يجتز الحدود . الاوامر واضحة فالمعركة لم تبدأ بعد ، والقيادة في طور التحضير للهجوم ومتى انتهى سنقوم بهجومنا الكاسح وعندها لن نبالي بتهديدات عدونا . اننا ننذر اي جندي يفكر بمغامرة اجتياز الحدود . هذا يعني التوريط في معركة غير متكافئة ويعني الهزيمة . كونوا ايقاظا ايها الرجال ويوم النصر قريب باذن الله » .

كان هناك في الرتل الاخير امام جماعته ، وكان يسمع التحذير وكلمات الحماسة وهي تتدافع من فم القائد . وتذكر وجهه المدمى المرتعد في الحلم والطيور الدموية تنقض عليه وتفقأ عينيه وهو يحاول صد الطيور . ها هو وسط الجنود بكش ذبابات تحوم حول وجهه وقد ارتسم الغضب عليه بديلا عن الذعر .

وفجأة داهم علي الراعي شعور مرير بالوحدة ، وبانه ربما كان مخطئا في عمله .

اعطى نفسه استراحة لمدة اسبوع ، لم يقم خلالها باية عملية . كان السر يضغط على جدران رأسه ، ولم يكن قد ناقش لماذا اقدم على التجربة والى متى يستطيع ان يستمر ، وهل يمكن ان يبقى وحيدا يقاتل خفية في معسكر لا يفعل الا التدريب والاكل والنوم والانصياع للاوامر ، ثم ينتظر . وفكر باطلاع السر لبعض عناصر جماعته الذين وثقوا به كما يبدو .

وعصر يوم عطلة انفرد بجندي كان يختبره خلال ايام التدريب ، وهمس له : لا تنزل الى المدينة . لدي ما اقوله لك .

وغب المساء اتجها نحو السفح بحذر شديد .

عقلت الدهشة لسان الجندي وهو يرى ما في الكهف ، وبعد ان انتهى علي من اغلاقه بصخرة محكمة روى له السر .

قال له وهما يجلسان قرب الكهف : لن تفشيه طبعا والا ...

وقارب كفه من رفيقه بحركة خاطفة تشير الى الذبح .

وقال الجندي بلجاجة : ولكن هذا ... عمل خطير .

فقال العريف الفخري بثقة : خطير او غير خطير . لقد حدث وليكن ما يكون . هل تشترك معي ؟

وتساءل الجندي : والقيادة ؟

قال علي الراعي : القيادة تنتظر اوامر القيادة العليا . والقيادة العليا تنتظر الاعلى منها . وهكذا ...

واستطرد : كم مضى عليك في هذا المعسكر ؟

— عامان تقريبا !

وقال علي : ومن كان قبلك . وسلفه . وسلف السلف . عطب البارود والحراب صدئت من الانتظار . الجنود نسوا الحرب . ما عادوا يفكرون بغير الاطعمة والرواتب والاجازات والزواج والنزول لى المدن الجميلة . الى متى ؟ انا كنت مثلك . نحن مخدوعون . اقسم لك .

وسأله الجندي : ولكن اتعتقد ان هجومهم لن يبدأ ؟

قال علي بوثوق ذاتي اكثر : سيان . لقد بدأنا نحن هجومنا وهذا هو المهم .

— أليس هذا مخالفة غير انضباطية ؟

فابتسم علي الراعي وربت على كتف الجندي : لا تفكر كثيرا فيما يقولون ويأمرون . ان هذا حكاية قديمة مسلية . تشبه حكايات الجدات الخرافية للاطفال في الليالي كي يناموا . ولقد اعتادوا روايتها علينا منذ عشرين عاما . صمت آذاننا ونحن نسمعها . ان احدا ما لا يأخذ على مسؤوليته امر الهجوم الكبير . صدقني هذه هي الحقيقة الساطعة .

كان المساء قد زحف الان وغطى المرتفعات والسهول ، وامامهما كانت ترى اضواء خافتة وحركة البات عدوة لم تكن تتحرك في النهار ونهضا عن الصخرة وانحدرا صامتين نحو المعسكر .

بعد منتصف الليلة الثانية تسلل علي من فراشه كعادته ، واتجه نحو مهجع الجنود . لكز الجندي النائم فهب من فراشه ورأى الجندي وهو يفتح عينيه ، شبح رجل يقف فوقه . وضع العريف كفه فوق فمه وهمس له : انا علي هيا . بسرعة .

كانت ليلة باردة وكان علي يحمل كيسا وسأله الجندي عنه فاجابه : دع الاسئلة وتعلم منذ الان ان تفتح عينيك جيدا واذنيك وان تصمت .

وقبل ان يجتازا الحدود اعطاه تفاصيل المهمة ثم ناوله من الكيس ثيابا عدوة وارتديا الالبسة وتأكد علي من سكين ورشاش وذخيرة الجندي ثم وضع يده على صدره . كان قلب الجندي يخفق بتسارع واضح فهمس له : ضع خوفك تحت حجر هنا وعندما تعود خذه الى المعسكر . انا اعرف تلك الارض معرفتي بساحة التدريب .

واجتازا خلف شجرة في حديقة كمن الجندي وراح يراقب في الظلمة بينما تقدم علي نحو الهدف .

لم يكن خوف الجندي قد هدأ تماما ، لكنه كان مطمئنا لوجود علي : « اي انسان هذا الرجل يدخل الى بيوت الاعداء ولا يرتعش .. هل من المعقول انه لا يخاف ؟ الاسد يخاف ناهيك عن الانسان . ابي كان يقول: الانسان لا يخاف الا انسانا مثله . واذا ما عرفوه ؟ والله هذا المقاتل اقوى من الموت اليس حراما ان يموت الرجال الحقيقيون ؟ لو اطلقت طلقة واحدة اهرب ؟ معي خمسة مخازن » . وتلمسها ثم عدها ولامس برؤوس اصابعه قبضة السكين . فأحس امانا محدودا .

كانت الارض طرية والشجرة فوقه تبدو من فتحاتها الغيوم ، وجواره كانت الظلمة وكان وحيدا ينصت لصمته المصدي ولاية نأمة ولخوفه . بل كانا وحيدين فوق ارض يطؤها الاف الاعداء . وخيل اليه انه سمع حشرجة خاطفة فتوثب ملامسا انحناءة الزناد وحدق اكثر . كانت فدماه تصطكان الان ونبضه يتسارع وجبينه يلتهب .

وعاد علي حاملا الكيس فوق ظهره واذ اقترب اعطى كلمة السر فاطمأن الجندي ، وعبرا في العودة طريقا اخر وتناوب الجندي حمل الكيس في منتصف الطريق فأحس ثقله وكروبة ما بداخله يتأرجح على عموده الفقري . وخلال العودة كانا كغريبين ولا كلمة حتى اجتازا خط الحدود . فقال علي مازحا : بامكانك ان ترفع الحجر وتتناول خوفك الان . واخذ منه الكيس متجها نحو الكهف وقال لرفيقه : اسبقني الى المعسكر .

وصاروا ثلاثة ثم اربعة وخشي علي ان ينكشف الامر اذا ازدادت العناصر كما توقع صدامات وخسائر مع العدو فأوقف الانتساب السري على خمسة من الجماعة دربهم واحدا تلو الاخر على الدخول واشركهم في عمليات خاصة قاسية وداهية حتى تصلبت نفوسهم وتحدت الخوف والرحمة . واعلمهم بانهم اصبحوا الان رفاق الموت .

باستمرار كان احد الافراد يسهر ويتجول في باحة المعسكر وعلى تخومه ، يراقب منتظرا ردود فعل العدو . وحتى ذلك الوقت بدا ان كل شيء كان يتم بهدوء في الداخل ، وكان التدريب مستمرا لكنه ازداد قساوة وتنوعا في جماعة علي ، بينما ظل على وتيرته في حياة جميع افراد المعسكر الاخرين .

كان الرفاق الستة متميزين في القدرة العضوية وقد بدا ذلك واضحا خلال تدريب السرية بكاملها في الرياضة والعبور والتسلق وتمارين القتال والمسيرات الليلية ، وكانت نفوسهم صافية كالفضاء . لا شكاوى، لا تذمر ، قبول ما يطلب منهم بروح عالية ، وتنفيذه ، ولم يفكروا منذ بدأت عملياتهم السرية باية اجازات او نزول الى المدينة . شيء واحد كان يؤرق نفوسهم : ان ينكشفوا !

***

وخلال الستة كانت المدينة تستهوي الجميع . وكانت المدينة محطة راحة وطمأنينة وشهوات لا تنقضي ، ولم يكن فيها حرب . وفي تلك الاثناء كانوا يخرجون الى البراري والهضاب المشرفة ويتحدثون عن اعمالهم ومستقبلهم وعن الاحتمالات وكان علي الراعي يقول : صدقوني انا لا اخاف العدو اكثر من الصديق . يبدو انهم قد تخدروا هنا او اصابهم الشلل أو النسيان . لست ادري ؟ يتحدثون كثيرا وقليلا ما يفعلون . بحرارة يحكون عن الماضي وتجارب الناس . ثم يختمون ذلك بحماس انتظار اوامر القيادة . ويسأله احد رفاقه : الى متى سنستمر في اعمالنا السرية ؟

فيجيب : الى ان نقوى اكثر او يحدث الهجوم الكبير .

ـ لكنك قلت ان ذلك لن يحدث ؟

ـ سيبدأه العدو يوما .

وكانت الصبوحية بعيدة جدا الان ، كذلك قرى الرفاق الرعاة الذين انجهوا منذ سنوات باتجاه الحرب لاجتياز الحدود . كانت الصبوحية اخر حلم يحلم علي الراعي بالعودة اليه ، لكنه كان فرحا في اعماقه لانه كان اول من خرق الهدنة وداس على التخوم الوهمية حيث لا فرق بين التربتين المتصلتين .

لم يكن لعلي الراعي تذكارات هامة ، وحتى ماضيه كان من التفاهم بحيث لا يدعو الى الحزن على شيء . كانت حربه الذي بدأها بطريقته الخاصة ، والتي تخطى فيها الاوامر ، وقادها ، هي ماضيه وحاضره ومستقبله ، وكان قد ادرك تماما بأنه قد وقع مع رفاقه وثيقة الموت بلا أسف .

بينما كانت المدينة الان ، قريبة جدا . ومشعشعة بالاضواء والخمر والنساء العذبات والسيارات والشقق المريحة ومكبرات الصوت والصخب المتواصل .

كان اليوم يوم جمعة وجميع الضباط وكثير من الجنود يمرحون وينسون ويطاردون الشهوات التي لا تنقضي .

وفجأة لمحوا رفيقهم الحارس يعدو نحوهم فهبوا واثبين وجروا اليه. كان يصيح : العدو ... العدو ... العدو يزحف نحونا . وعدوا باتجاه المعسكر وصاح علي بمن في المعسكر بصوت متوحش ممزق :العدو ... الى السلاح وكسر المستودع وراح يوزع السلاح والذخيرة والقنابل اليدوية واوعز الى احد رفاقه ان يتجه بالجنود الى التلال المجاورة ويتمركزوا هناك .

وخلال دقائق انم عملية التوزيع والتحق برفاقه . نشر الجنود مجموعات على رأس كل مجموعة وضع رفيقها واعطى التعليمات بقتال العدو حتى الموت وهدد من ينهزم بالرمي والقتل . كان تمركزه على نحو لا شعوري قريبا من الكهف مع مجموعته .

وبدأت المعركة .

ـ ٥ ـ

لم يصدق علي الراعي ما تراه عيناه في البدء . غير ان الوجوه المنقبضة وعلامات الحزم والصرامة وهذه الكلمات الحاسمة ذات الايقاع التاريخي الجاد ، والحرس ذوو القبعات الحمر يحيطون به . جميع هذه الطقوس المنبثة رمت في قلبه الذي لم يهب يوما نوعا من الفزع الحقيقي . وغمرته موجة حزن عميقة القرار وهو يرى نفسه مطوقا منهما بتخطي وخرق اوامر القيادة .

لقد وقع اذن وهو جريح . وشعر بانه وحيد الان يواجه اناسا اخرين عيونهم مصوبة اليه وهو اعزل لا يعرف الا القليل من كلمات اللغة .

وكان السؤال الاول : منذ متى بدأت تجتاز الحدود ؟
ولانه لا يذكر التاريخ تماما اجاب : لا ادري .
وسئل : لماذا خرقت الحدود ؟
وقال بسذاجة : لان العدو كان هناك .
واجاب على سؤال : هل تعترف بانك تخطيت اوامر القيادة ؟
بنعم .
وعلى سؤال : وهل كان سلوكك هذا تمردا ؟
بـ لا
وسألوه : هل اردت ان تكون بطلا ؟
فنفى ذلك .
ـ لماذا قمت بتنظيم سري اذن ؟
وجم . ثم نظر نحو الارض . تذكر رفاقه وليالي التسلل الى المستعمرات والمعركة الاخيرة التي دحر فيها العدو ، وشعر بجرحه ينقز : « اين هم الان ؟ » .
واعيد السؤال فلم يشعر بضرورة الاجابة فظل صامتا .
كان الحزن يفور الان في نفسه ، فيشعر بالعزلة وكأنه منفي في صحراء بعيدا عن رفاقه ، عن امه ، عن الصبوحية التي علمته براريها وقسوتها وسماؤها كيف يكون جريئا صافيا كينابيع جبالها .
وهمس لنفسه : « ما اكبر خديعتك يا علي الراعي ! » .
وسئل : هل استخدمتم ذخيرة اكثر من المخصصة لكل جندي ؟
فقال نعم .
ـ ومن اين حصلتم على هذه الذخيرة ؟
فقال : من مستودع الذخيرة .
وسئل : اشرح لنا كيف كنت تسطو على المستودع ؟
وسأل مستفربا عن معنى كلمة : تسطو . فأجيب : اي تسرق .ودهش من سماع هذه الكلمة فنفى ان يكون سارقا وقال : امي تشهد بأنني لم أسرق بيضة في حياتي . واجتاح القاعة موجة من الضحك .
تجهم الرئيس ونقر : سكو...ت .
وبدأت المعركة من جديد عن المعركة الاخيرة وكسر المستودع وقيادة الجنود : لماذا لم تبلغ الضابط المناوب عن العدو ليتصرف هو باعتباره اقدم منك واقدر على القيادة ؟
وود ان يعترض على كلمة اقدر لكنه قال : نسيت ذلك في غمرة الاسراع لمواجهة العدو .

ـ هل تعلم بانك تسببت بجرح جنديين انت احدهما وفقد آخر ؟
وجمد نظراته في السائل لمدة ثوان معدودة . كتم صرخة ولم يجب .
في اليوم الثاني وفي اجتماع الظهيرة تلي امر اداري على جنود السرية الرابعة يتهم علي بن سويلم الراعي من قرية الصبوحية احدى قرى الوطن العربي المحتل بالتهم التالية :

« ١ ـ خرق اوامر القيادة العليا للجيش والقوات المسلحة والمغامرة بتخطي الحدود للقيام بعمليات نهب وسطو ادت الى قيام العدو بهجوم على احد معسكراتنا .

٢ ـ تشكيل تنظيم سري في المعسكر رقم (١) والتحريض على العصيان ودخول مستعمرات العدو بالقصد ذاته المبين في المادة رقم (١) .
٣ ـ التصرف بذخيرة المعسكر سرا لصالح الجماعة التي شكلها المتهم بدون علم من القيادة .

٤ ـ تخطي من هو اعلى منه رتبة وكسر مستودع الذخيرة والتصدي بعدد ضئيل من الجنود لسريتين من جنود العدو مما سبب جرح جنديين وفقدان اخر تعتقد القيادة ان العدو قد اسره والجندي المفقود يحمل اسرارا عسكرية في غاية الخطورة قد يضطر الى افشائها تحت الضغط والتعذيب .
ان القيادة بناء ما ورد في التهم المبينة ادناه ، وحرصا منها على سلامة الوطن وجنوده ، وحتى لا تتكرر مثل هذه المحاولات الفردية المغامرة ، التي قد تورط الجيش والشعب في معركة لم يتم الاستعداد لخوضها ، وتثبيتا للقيم الانضباطية ، وحتى تحفظ هيبة القيادة وتنفذ اوامرها بحزم وشدة .

حكمت على العريف علي بن سويلم الراعي :
١ ـ بالتجريد من رتبته العسكرية الفخرية .
٢ ـ بطرده من القوات المسلحة .
٣ ـ بزجه في معسكرات الاعمال الشاقة لمدة ...» .
لم يسمع الجنود مدة الحكم . كانت ابصارهم معلقة على مدخل المعسكر وقد بدأوا يهمهمون باصوات مرتفعة .
كان الجندي المفقود يتقدم بتثاقل جارا وراءه مدفعا ثقيلا وعلى كتفيه عدد من الرشاشات والبنادق . كان يقترب من الساحة وابصار الجنود معلقة عليه والدهشة تتخطف الجميع .

بدا منهمكا وثيابه مبللة بالعرق وهو يلهث محني الظهر تحت حمله .
نسي الجنود المجتمعون الامر الاداري فوثبوا نحوه ليساعدوه . وبهت الضابط فتراخت يده التي تحمل الامر وهوت على جنبه واذ وصل الجندي الساحة ، هوى اعياء على الارض .

تقدم الضابط منه ورفعه قليلا فسقط الامر فوق الغبار ، وراح يمسح عرقه ، وطلب له ماء فسقوه وسأله الضابط بذهول :
من اين جئت بهذه الاسلحة ؟
فتمتم :من مغارة علي الراعي .
ـ هل بقي هناك اسلحة ؟
فاجاب بخفوت تعب : اجل . ورؤوس ايضا .

دمشـق — حيدر حيدر

شعـر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتهـا	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠